

تجربة ابن زيدون العاطفية مع ولادة

من خلال شعره الغزلي⁽¹⁾

(مقاربة دلالية أسلوبية)

بقلم : د الحبيب العوادي - تونس

يتنزل عملنا هذا في نطاق البحث عن طبيعة العلاقة التي تشد الأثر الأدبي المبدع إلى مبدعه، لذلك يقوم نصّ ابن زيدون الغزليّ عندنا مقام الشاهد الذي سنحاول أن نستشف من خلاله معطيات التجربة العاطفية، وأن نكتشف نسق تطورها وتسلسلها، وما من سبيل إلى تحقيق ما نصبو إليه إلا النصّ الغزليّ نعد إلى تحليل خصائصه البنوية والأسلوبية في نطاق محاور معينة فيفضي بنا إلى الدلالة التي نسعى إلى الظفر بها. هكذا يدور النصّ حول نفسه، فيكون في آن واحد نقطة ننطلق منها ومرجعا نعود إليه.

إن مبتغانا الأساسي من هذا البحث، كما ألمعنا إلى ذلك آنفا يكمل محاولة استشفاف أبعاد الحبّ التي اضطربت في نفس ابن زيدون، وجملة العواطف والأحاسيس التي شكّلت العالم النفسيّ الباطنيّ لتلك التجربة .⁽²⁾

وما سبيلنا إلى ذلك إلا النصّ الشعريّ الغزليّ الذي فيه أفرغ عاشق ولادة ما تلجّج في صدره من مظاهر التعلّق والهيّام والحزن والحرمان، فجسد لنا النصّ -بذلك- ما عليه الشاعر العاشق أو ما يخشى أن يؤول إليه أو ما يتوق إلى التخلّص منه أو ما

(1) ساهمنا بهذا البحث في مؤتمر النّد الأدبي الذي انعقد في رحاب جامعة اليرموك بالأردن أيام 10 - 13 جويلية 1988 .

(2) بيّن محمد مفتاح بعض خصائص هذه التجربة في مقال له بعنوان "وجهة نظر في غزل ابن زيدون" وقد نشر بمجلة الكتاب العراقية، ضمن عدد خاص بالذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون، أعمال مهرجان الرباط، 15- 22 تشرين الثاني، 1975، بغداد، 1975 .

يطمح إلى تحقيقه . وقد يكون الأسلوب في هذا السياق البُعد النصّي المجسّد لخصائص الذات المبدعة والمتأزمة . فما هي طبيعة هذه التجربة وما هي مراحلها وكيف تطوّرت حتّى بلغت منتهاها وكيف جسّد النصّ الشعري الغزليّ بمعانيه وأساليبه وصوره تلك التجربة ؟

1) الحبّ والصّباة :

لعلّ أوّل سمة تجسّد تجربة ابن زيدون العاطفية إفصاح الشاعر عمّا يعاني من مظاهر الصّباة والأرق جرّاء انجذابه إلى حبيبته ولآدة، إلى مثله الأعلى الذي تلبّس بالأمني فلم تتجاوزه . يقول ابن زيدون في مقطوعة غزليّة (مجزوء الكامل) : (3)

أَنْى أَضَيِّعُ عَهْدَكَ ؟ أَمْ كَيْفَ أَخْلِفُ وَعْدَكَ ؟
وَقَدْ رَأَيْتُكَ الْأَمَانِي رِضًى فَلَمْ تَنْعَدْكَ

ويجسد الاستفهام الدالّ على الاستحالة -على صعيد الأسلوب- مدى الارتباط الذي أصبح يشدّ كيان الشاعر إلى حبيبته واستحالة الانفصال تبعاً لذلك، وتعزّز الجملة الحاليّة التي صيغ فيها البيت الثاني (وقد...) تلك الدلالة بارتكازها على معنى المقابلة. بيد أن المنظور الذي ينظر ابن زيدون من خلاله إلى حبيبته لا يتعدى حدود المنظور الذاتي ولا يعكس طبيعة العلاقة بين المحبّ والمحبيب إلّا من زاوية واحدة هي زاوية المحبّ، فإذا كانت ولآدة رديفة لأمني النفس عند ابن زيدون، ومثلها الأعلى الذي لا يمكن أن تتعدّاه فكيف كان تصوّرها لعاشقها ؟ وكيف كانت طبيعة العلاقة التي تشدّها إليه وطبيعة العواطف التي تكنّها له ؟

يقول ابن زيدون في المقطوعة التي استشهدنا بها آنفاً (مجزوء الكامل) (4) :

يَا لَيْتَ مَالِكَ عِنْدِي مِنْ الْهَوَى لِي عِنْدَكَ
فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي كَطَوَّلَ لَيْلِي بَعْدَكَ

(3) ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق كرم البستاني، ط. دار صادر، بيروت، 1975، ص 55، نشير إليه بـ "الديوان".

(4) المصدر السابق، ص 55.

ففي البيت الأول تتجلى طبيعة التناقض بين كياني المحبّ والحبّية، وكذلك بين طبيعتي العلاقة التي تشدّ كل واحد منهما إلى الآخر. من هذا المنظور يبدو لنا انخرام التوازن بين عواطف الشاعر وعواطف ولادة إن لم نقل انعدام التجانس بينهما. فولادة لا تكن من الهوى لابن زيدون ما يكنه لها، ولا تشقى لفراقه مثلما يشقى لفراقها. تلك هي بذرة التأزم في تجربة ابن زيدون العاطفية وهي بذرة ستنمو بمرور الأيام.

لقد أفضى تعلق ابن زيدون بولادة إلى الاتحاد بكيان الحبّية على جفائها، لذلك أصبح لا يتصوّر لنفسه حياة بدونها، يقول (مجزوء الكامل) (5) :

سَلَنِي حَيَاتِي أَهْبَهَا فَلَسْتُ أُمَّاكَ رَدَّكَ
الدَّهْرُ عَبْدِي لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ عَبْدَكَ

ونظرا إلى ما وقفنا عليه من عدم تكافؤ في العواطف بين ابن زيدون وولادة نعث في مواضع شتى من القصائد والمقطوعات الغزلية التي يتضمنها الديوان، على كثافة المعاني المتعلقة بالشكوى والألم والصباة والسقام، وهي معان لا تخلو من الصدق والمعاناة وإن كانت من مميزات الغزل عامة باعتباره جنسا شعريا أو من قبيل "المعاني المتشابهة" في الشعر العربي (6).

ففي مقطوعة بائية يفصح ابن زيدون عن شكواه فيقول (مجزوء الرمل) (7) :

هَلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبُ ؟ أَمْ لِشَاكِيكَ طَبِيبُ ؟
يَا قَرِيبًا حِينَ يَنُأَى حَاضِرًا حِينَ يَغِيبُ

ويجسد قرب الحبيب على نأيه وحضوره على غيابه حلول المحبوب في كيان المحبّ واستحالة وجوده الجسدي إلى وجود روحي لا يتقيد بقيود الزمان ولا المكان، لذلك تفقد المتناقضات - في هذا السياق - أبعاد التناقض بينها (قريبا/ينأى

(5) محمد الهادي الطرابلسي، مصادر التصوير في شعر ابن زيدون، مجلة أوراق الإسبانية 1983.

(6) الديوان، ص 65.

(7) الديوان، ص 65.

حاضرا/يغيب) فالحبيب قريب دائما إذ لا يبعده النَّأي كما لا يقرِّبه القرب وهو حاضر دائما لأن الغياب لا يتطرق إليه أكان موجودا أم غير موجود.

بيد أن التحام كيان الحبيبة بكيان المحب لم يفض إلى الانسجام لأنه حب من طرف واحد على ما يبدو، أو لنقل إنه حب غير متوازن . وفي هذا السياق ينتزل الاستفهام الذي استهل به ابن زيدون بائيته "هل لداعيك مجيب " ومدار هذا الاستفهام هو ربط الصلة الوجدانية الحقيقية اي المتوازنة بين الكيانين، فمن جهة تلمس حضورا دائما لوجود المحبوبة في كيان المحب ومن جهة أخرى نقف على انفصال بين الكيانين يجسده خير تجسيد فقدان الجواب .

على أن أزمة ابن زيدون العاشق تتوزع في هذا السياق على بعدين : بعد يتعلق بتلبس كيانه بكيان ولادة، دون أن يفضي ذاك التلبس إلى الانسجام، ودون أن يتولد عنه وصال حقيقي، وبعد آخر يتعلق بفقدان العاشق القدرة على الخلاص من هيمنة ذات المحبوبة عليه والانفصال عنها . فلا هو بقادر على إحداث التوازن في حالة «الوصال» ولا هو بقادر على الخروج من أزمنته بواسطة الانفصال يقول في هذا السياق (مجزوء الرمل) (8) :

كَيْفَ يَسْأَلُوكَ مُحِبٌّ	زَانَهُ مِنْكَ حَبِيبٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ	تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ	هُوَ لِأَشَاكَ مُصِيبٌ
أَنْ سِرَّ الْحُسْنِ مِمَّا	أُضْمَرَتْ تِلْكَ الْجُيُوبُ

ويتبدى لنا أن مرد ذلك العجز كامن في أن ذات المحبوبة قد استحالت عند عاشقها عنصرا من عناصر الحياة، لذلك نجد ابن زيدون في مواضع كثيرة من قصائده

الغزلية يلحّ على تصوير منزلة ولادة في وجوده . وما يحدثه صدها أو غيابها من تأزم نفسي مداره الصبابة والشجى والهمّ. يقول في قصيدة نونية (مجزوء الرمل) (9) :

يَا غَزَاً جُمِعَتْ فِيهِ مِنْ الْخُسْنِ فُنُونُ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْدِ مِنْ النَّفْسِ مَكِينُ
بِهَوَاكَ - الدَّهْرُ - أَلْهُو وَبِخُبْرِكَ أَدِينُ

ولكنّ هذا الحبّ لم يفض إلى الوصال، وفي هذا السياق يتنزّل النداء لربط الصلة بالحببية، والخروج من حيز الحرمان والصبابة والشقاء الروحي، إلى حيز الإشباع والتوازن النفسي، يقول في النونية ذاتها : (10)

مُنِيَّةُ الصَّبِّ أَغَثَّتِي قَدْ ذَنْبَتْ مِنِّي الْمَنُونُ
وَأَحْفَظَ الْعَهْدَ فَإِنِّي لَسْتُ وَاللَّهِ أَخُونُ
وَارْحَمَنَ صَبًّا شَجِيًّا قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ
لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ وَسَقَامٌ وَأَنِينُ
شَفَّهُ الْخُبُّ فَأَمْسَى سَقَمًا لَا يَسْتَتِينُ (11)
صَارَ لِلْأَشْوَاكِ نَهْبًا فَتَبَّتْ عَنْهُ الْعُيُونُ (12)

ويظلّ الشاعر يتوق إلى ذلك الوصل حتّى يبيث حبيبته ما يشكوه من تأزم وعذاب، يقول في مطلع قصيدة بائنة (المجتث) (13) :

مَتَى أَبُثُّكَ مَا بِي يَا رَاخَتِي وَعَذَابِي ؟
مَتَى يُنُوبُ لِسَانِي فِي شَرْحِهِ عَن كِتَابِي ؟

(9) المصدر السابق، ص 74 .

(10) المصدر السابق.

(11) شَفَّهُ أَي أَوْهَنهُ حَتَّى غَدَا نَحِيفًا .

(12) نَبَت أَي تَجَافَت وَتَبَاعَدَت .

(13) الدِّيْوَان، ص 50.

على هذا النحو يقتزن تصوير ابن زيدون عشقه لولادة بالألم والحزن، وهو عشق يتوق إلى الإشباع، ولم يزد الشوق والجوى إلا حدة، ولم يحل النأي والصدّ دون تعمقه، وتبعاً لذلك آل الحب إلى التآزم النفسي والوجودي، استحال عيش ابن زيدون بدون ولادة لأنها أصبحت تشكّل من حياته محوراً أساسياً، يقول في هذا السياق (المجتث): (14)

أَصْبَحْتُ فِيكَ لِمَا بِي	اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي
وَلَا يَسُوعُ شَرَابِي	فَلَا يَطِيبُ طَعَامِي
وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي (15)	يَا فِتْنَةَ الْمُتَقَرِّي
عَنْ نَاطِرِي بِالْحِجَابِ	الشَّمْسُ أَنْتِ تَوَارَتْ
عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ	مَا الْبَذْرُ شَفَّ سَنَاهُ
أَضَاءَ تَخْتِ النَّقَابِ	إِلَّا كَوَجْهِكَ لَمَّا

على هذا النحو أصبحت ولادة تعني وجود الشاعر بعد أن كانت جزءاً ملتصقاً به وأضحت ولادة تشكّل جوهر حياته بعد أن كانت محوراً أساسياً . وعندما بلغت الحبيبة من نفس ابن زيدون هذه المنزلة اقتزن الأُنس بوجودها والعيش بوصالها يقول في ذلك (البسيط) (16) :

مَنْ دَانَ فِي حُبِّهِ بِالصَّدْقِ وَالْوَرَعِ	تَا اللَّهَ أَكْرَمُ مَا أَمْضَى الْيَمِينُ بِهِ
عَنْهُ، وَلَا سَاغَ عَيْشٌ لَسْتُ فِيهِ مَعِي	مَا لَذَّ لِي قُرْبُ أُنْسٍ أَنْتِ نَازِحَةٌ

غير أن الصورة القائمة للتجربة العاطفية التي تمكّننا من استخلاصها بواسطة استنتاج النماذج الغزلية واستقراءها لا تعكس حقيقة تلك التجربة، فلم يكن حبّ ابن

(14) الديوان، ص 50.

(15) المتقري هو الناسك.

(16) الديوان، ص 52.

زيدون سلسلة من الألم والأحزان فقط نتيجة الفراق والصبابة، بل عرف ابن زيدون - إلى جانب الحزن والشوق والحيرة - أيام وصال ممتعة، ولحظات ودّ وانتشاء، وساعات انسجام مع الحبيبة، واتحاد بها في غمرة السرور والنشوة العارمة . ولعلّ هذه الجوانب المشرقة في تجربة ابن زيدون العاطفية هي التي عمّقت محنة الشاعر بعد حدوث القطيعة وانفصام أسباب الهوى بين العاشقين .

ففي النونية الشهيرة يتطرق ابن زيدون إلى تصوير ليالي حبه التي بثت فيها ولادة من السرور والأنس ما جعلها بيضاء، يقول (البسيط) (17) :

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ سُوْدًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
وكانت أيام السرور أياما تألف فيها قلبا الحبيين وتصافيا، فبدا العيش لذلك طلقا، ومربع اللّهُ صافيا (البسيط) :

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقٌ مِنْ تَأْلُفِنَا وَمَرْبَعُ اللّٰهُ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا (18)
وفي هذا السياق تفتقر التجربة العاطفية بالوصل والانتشاء بلحظات الاتحاد التي تدلّ الفواصل بين ضميري " الأنا " و " الأنثى " ويحلّ محلها ضمير المتكلم الجمع (نحن) تجسيدا لانصهار الكيانين في كيان واحد :

وَإِذْ هَصَرْنَا فَنُؤْنَ الْوَصْلِ دَانِيَةً قَطَافُهَا، فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا (19)
ثم ينفصل ضمير الحبيبة عن ضمير المحبّ تبعا للتأزّم المنبثق عن اللحظة الراهنة لحظة الفراق ولحظة الإبداع (البسيط) :

لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لَأَرْوِاحِنَا إِلَّا رِيَّاحِينَا (20)

(17) الديوان، ص 10 .

(18) المصدر السابق، ص 10 .

(19) المصدر السابق، ص 10 .

(20) المصدر السابق، ص 10 .

على هذا النحو يبدو لنا حبّ ابن زيدون لولادة حبّا متأزما لأنه يحمل في طياته جملة من المتناقضات ويتجلّى لنا هيام الشاعر بحبيبته هياما أفضى إلى ذوبان كيانه، وأمحاء وجوده، وتضخم وجودها، لذلك استحال تصوّر ابن زيدون العيش بدونها إذ أصبحت ولادة رديفة العيش، واستحال الانفصال عنها إذ أصبح الاتّصال بها روحيا ووجدانيا وفكريا يعني الحياة والبقاء تلك صورة العلاقة التي تشدّ كيان ابن زيدون العاشق إلى معشوقته، أمّا صورة العلاقة التي تشدّ ولادة إلى عاشقها فلا تخلو من التناقض والتضارب، ذلك أننا لا نستطيع أن نذهب إلى اعتبارها مبنية على أساس الحبّ الخالص كما لا نستطيع أن نذهب إلى اعتبارها مبنية على الصدّ والتمنع لأنها ليست صدّا محضا ولا تمنعا صرفا، وإنما أقصى اجتهادنا إذا رمنا الموضوعية أن نقول إنها تجسّد مزجا غريبا، بين الحبّ والجفاء، بين الإقبال الناجم عن التوقّ والشوق، والإعراض المتولّد عن ضرب من الكبرياء والعجب.

وعن القطب الأول تنبثق سعادة ابن زيدون، وتستوي حياته في حركة توازن نفسيّ وروحيّ شبيه بالحالة الصوفية، وعن القطب الثاني ينبثق شقاؤه، وإذا اشتدّ التأزّم استحال إلى معضلة وجودية حادة، فمأساة حياتية ووجدانية قد يزيدا تدخل الغير عمقا واتساعا، وقد تزيدها الأحداث حدة ومرارة.

هكذا لا نستغرب وقوفنا في مواضع سابقة من هذا البحث على مظاهر متناقضة في صورة الحبّ التي حاولنا استشفافها من خلال الملفوظ الشعريّ الغزليّ الذي تفجّرت به نفس المحبّ، فكان في الآن نفسه تعبيراً عن تلك التجربة إن لم نقل تلك المحنة وشاهدا على وجودها. ذلك هو المحور الدلاليّ الأول الذي تدور عليه تجربة ابن زيدون العاطفية، أما المحور الثاني فيتمثّل في تسرّب الغير إلى حيّز العلاقة التي تشدّ المحبّ إلى حبيبته سعيا إلى إفسادها أو قطعها قطعاً باتاً، وليس الغير في سياق الغزل إلاّ الوشاة والعدّال والحساد.

(2) الوشاية :

تمثّل الوشاية الحدث الثاني في تجربة ابن زيدون العاطفية، وفي هذا السياق يتطرّق عنصر دخيل إلى علاقة المحبّ بمحبوبته، وما من غاية له وراء ذلك إلاّ القضاء على ما بين الحبيبين من أواصر العشق والانسجام. فكيف جسّد النصّ الشعريّ هذا

الحدث؟ وكيف كان موقف كل من ابن زيدون وولادة من الوشاية والواشين ؟ وإلى أي مدى أثرت الوشاية في طبيعة العلاقة بين الحبيبين ؟

قد لا نباغت القارئ إذا قلنا إن موقف ابن زيدون من الوشاية والشاة كان موقف الرفض، وهل لعاشق ولادة أن يقبل انفصال كيانه عن كيانه وانفصام وجدانه عن وجدانه، بل هل كان له أن يختار بين الوجود والعدم أو بين حياته وموته ؟ على هذا النحو يتبدى لنا موقف ابن زيدون من الوشاة امتدادا طبيعيا لأبعاد التعلق والهيام اللذين يقضيان بالوصال والانسجام والاتحاد. يقول ابن زيدون في مقطوعة رائية معربا عن موقفه الصارم من الحساد والوشاة (الرجز) :

يَا سُؤْلَ نَفْسِي إِنْ أَحْكَمَ	وَاخْتِيَارِي إِنْ أَخْيَرُ ⁽²¹⁾
كَمْ لَأَمْنِي فِيكَ الْحَسُودُ	وَقَنْدَ الْوَاشِي فَأَكْثَرُ
قَالُوا : تَغَيَّرَ بِالسُّلُوءِ	وَبِالْمَلَامَةِ قَدْ تَعَيَّرُ
وَتَوْهَمُوكِ جَنَيْتِ ذَنْبًا	وَبِالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرُ
وَبِزَعْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِنِّي	فِي الرِّضَى بِالذُّونِ يُعْذَرُ
لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْهَوَى	رِقٌّ وَأَنَّ الْحُسْنَ أَخْمَرُ

ففي مستهل هذه المقطوعة تتجسد حتمية ارتباط ابن زيدون بحبيبته، والأسلوب الشرطي الذي يفيد الافتراض (إن أحكم ، إن أخير) يعمق المقابلة بين مجالي الحقيقة المعيشة والافتراض المستبعد، إذ لا تحكيم ولا تخبير للشاعر في هذه الحالة. وإذا كنا وقفنا في مفتتح هذه الدراسة عند تحليلنا لمظاهر الحب والتعلق بين الحبيبين على توزع الخطاب الغزلي من الوجهة الصرفية على ضميري "الأنا" و"الأنت" أو «الأنا» و"الهي" فإننا ننتبين بوضوح في هذه الرائية التي تتدرج في سياق الوشاية تدخل ضمير الجمع الغائب في نسيج الخطاب (لآمني / قند / قالوا / توهموك / لم يعلموا)،

وإذا تدبرنا هذه الأفعال وجدناها ذات دلالة سلبية يرمي الوشاة من ورائها إلى الفصل والقطيعة.

على أن موقف الشاعر منهم ومن مساعيهم يتجلى في البيت الأخير من المقطوعة حيث يبرز في آن واحد جهلهم بطبيعة الحب الذي لا يعرف إلا بالمعاناة بالمعنى الذي يذهب إليه ابن حزم الأندلسي⁽²²⁾، ويعمق العلاقة التي تشده إلى حبيبته ولادة (الرجز):
لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْهَوَى رِقٌّ وَأَنَّ الْخُسْنَ أَحْمَرُ⁽²³⁾
بيد أن ابن زيدون كان يتألم من صدّ ولادة وإعراضها، وما إصراره العتب عليها وإضماره الغيظ فيها إلا ضرب من ضروب ذاك التألم، هذا ما نلمسه في قوله (الوافر) (24) :

أَسْلَبُ مِنْ وَصَالِكَ مَا كُسِيتُ ؟ وَأُعْزَلُ عَنْ رِضَاكِ وَقَدْ وَلِيتُ ؟
وَكَيْفَ، وَفِي سَبِيلِ هَوَاكِ طَوْعًا لَقِيتُ مِنَ الْمَكَارِهِ مَا لَقِيتُ
أَسِرُّ عَلَيْكَ عَتَبًا لَيْسَ يَبْقَى وَأُضْمِرُ فِيكَ غَيْظًا لَا يَبِيتُ

ولكن ذاك العتب وذاك الغيظ المؤقتين لا يفضيان إلا إلى بلورة تعلقه بها ورفضه للوشاة، وقد عزز أسلوب الحصر (ما... إلّا...) نزعة الإطلاق في ذاك الرقص، يقول في التائية عينها (الوافر) (25) :

(22) طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق وتقديم صلاح الدين القاسمي دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1979 يقول ابن حزم في ماهية الحب : " الحب " أعزك الله أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة " ص 27 .

(23) الديوان، ص 57.

(24) الديوان، ص 54 .

(25) المصدر السابق ، ص 54 .

وَمَا رَدِّي عَلَى الْوَاشِينَ إِلَّا رَضِيْتُ بِجَوْرِ مَالِكِي رَضِيْتُ
وهذا البيت - وإن كان يعتبر ردا صارما على الوشاة - لا يخلو من العتب، إذ ما
رضاء ابن زيدون في هذا السياق إلا رضاء بجور وخضوع لظلم .

هكذا يتجانس تعلق ابن زيدون بولادة وحبه لها مع الموقف الذي اتخذه ممن
يريدون قطع ذاك التعلق، وإفساد ذاك الحب الذي جعل المحبوبة تتصل بقلب عاشقها "
اتصال الخلب بالكبد " وجعلها تمتزج بكيانه " امتزاج الروح بالجسد " يقول قي هذا
السياق (البسيط) (26) :

لَمَّا اتَّصَلْتُ اتَّصَلَ الْخَلْبُ بِالْكَبِدِ ثُمَّ امْتَزَجَتْ امْتَزَاجَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ (27)
سَاءَ الْوَشَاءُ مَكَانِي مِنْكَ وَاتَّقَدْتُ فِي صَدْرٍ كُلِّ عَدُوٍّ جَمْرَةَ الْحَسَدِ

فإذا كان امتزاج كيان المحب بكيان حبيبته أفضى إلى تشكّل وجود واحد، فهل
يجوز لنا أن نستغرب وقوف ابن زيدون في وجه الناس جميعا وإن سخطوا، وتشبّهه
بميثاق العهد الذي يشده إلى ولادة وإن طال الأمد؟ يقول في خاتمة المقطوعة الدالية
(البسيط) (28) :

فَلْيَسْخَطِ النَّاسُ لَا أَهْدِ الرِّضَى لَهُمْ وَلَا يَضْعُ لَكَ عَهْدَ آخِرِ الْأَبْدِ
وتبعا لذلك يتسع المجال الذي يمثل الوشاة والأعداء حتى يشمل على سبيل المبالغة
الناس كلّهم، ويقف إزاء عالم الحبيبة موقف النقيض (الناس / الحبيبة)، وإزاء عالم
المحب موقف العداء (الناس / المحب) .

على أن وشاية الوشاة وحسد الحساد زادا عشق ابن زيدون لولادة بلورة وحدة،
كما ارتقى به إلى درجة أخرى من التأزم، ذلك أن الشاعر أضحى مواجهها لنمطين
من العداء، عداء مباشر يجسده الوشاة والحساد، وعداء غير مباشر يتبدى في صدّ

(26) المصدر السابق ص 63 .

(27) الخلب : لحيمة رقيقة ملتصقة بالكبد .

(28) الديوان ، ص 63 .

الحبيبة عن محبتها رغم ما بينهما من أواصر الحب والهوى . ولعل طبيعة الموقف الذي اتخذته ولادة من الواشين والحساد كفيلاً بأن يجلي لنا درجة ذلك التأزم، فكيف كان موقف ولادة منهم ؟

لقد تبنينا أنفا رفض ابن زيدون مزاعم الوشاة ومساعدتهم الرامية إلى صرم العلاقة بينه وبين حبيبته، وفاء لما يشده إليها من ودّ وحفاظا على التئام كيانه وانتظام حياته . أما موقف ولادة من الوشاة فيبدو من خلال النصوص الغزلية التي تقوم مقام الشاهد عندنا، مناقضا لموقف عاشقها منهم، وآية ذلك أن ولادة فتحت المجال في وجه الوشاة والحساد، وتعاطفت معهم، وراقها " سحر العدى "، واغترت بما يدبرونه من زور . هذا ما نقف عليه في المقطوعة اللامية التالية (المقارب) (29) :

لئن قصّر اليأسُ منك الأملُ	وحال تجنيك دون الحيل ⁽³⁰⁾
وتأجأك بالإفك في الحسود	فأعطيته جهرة ما سأل
وراقك سحر العدى المفتري	وغرك زورهم المفتعل
وأقبلتهم في وجه القبول	وقابلهم بشرك المقتبل
فإن ذمام الهوى لم أزل	أبقيه حفاظا كمالم أزل

على هذا النحو يبدو موقف ولادة مناقضا لموقف عاشقها، وقد جسدت بنية المقطوعة من الوجهة النحوية ذلك التناقض من خلال المقابلة القائمة بين جملة الشرط (لئن ...) وجملة جواب الشرط (فإن ...) وتبعا لتركيز ابن زيدون على بلورة

(29) المصدر السابق، ص 34.

(30) يذهب ألبير مطلق إلى أن هذه اللامية ترجع إلى الفترة التي هاجر فيها ابن زيدون إلى إشبيلية، أي إلى ما أسميناه بفترة القطيعة النهائية بينما أفضت بنا دلائل النص الأسلوبية والدلالية إلى تنزيلها في حيز القطيعة المؤقتة، فإذا صحّ ذلك كان زمن إبداع القصيدة سابقا لهجرته إلى إشبيلية . انظر في هذا السياق مقال " مبني الرسالة في نثر ابن زيدون وشعره " لألبير مطلق ضمن كتاب دراسات في الأدب الأندلسي، الدار العربية للكتاب ليبيا-تونس، 1976، ص 185 .

المظاهر السلبية في موقف معشوقته تعددت جمل الشرط بواسطة العطف (قصر اليأس ... / وحال تجنيك / وناجاك بالإفك ... / وراقك سحر العدى / وغرك زورهم / وأقبلتهم / وقابلهم بشرك) . وقد عمق الشاعر التناقض من خلال المقابلة بين طرفي التركيب التلازمي، أي بين جمل الشرط المتعددة، وجملة جواب الشرط الوحيدة، ومن خلال هندسة الأبيات نفسها إذ تبدو الأبيات الأربعة الأولى (1-4) مناقضة للبيت الخامس والأخير، كما تبدو المقابلة بين أفعال جملة الشرط الدالة على أحداث طارئة، وطبيعة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستقرار، أما من الوجهة الدلالية فتقوم المقابلة بين موقف ولادة الذي يجسد انحيازها للحساد والوشاة وتعاطفها معهم، وليس ذلك إلا صورة لتجنيها وفور حبها من جهة، وموقف ابن زيدون الذي ما انفك يتعلّق بما يشده إلى حبيبته من أواصر العشق والوفاء من جهة أخرى. ويعكس تكثيف الشاعر من استخدام العبارات الدالة على الاستمرار (لم أزل / أبقيه / حفظا / كما لم أزل) إصراره على الوفاء، وتشبته المتين بما كتبه على نفسه من عهد .

على هذا النحو تجسد الجملة الشرطية التلازمية وضع الشاعر في علاقته بحبيبته، ولكن الطرف الأول في العلاقة اقترن - ضمن هذا السياق - بالأعداء، ذلك أن ولادة أصبحت متلبسة بمواقفهم، أما الطرف الثاني وهو الشاعر فقد ورد مفردا، ولكنه مفرد مصرّ على مجابهة الجمع . فتركيب الجملة الشرطية التلازمية يدلّ في الآن نفسه على معنى المقابلة والتضادّ اللذين يتولّد عنهما الصّراع، وهو عنصر التآزم، ويدلّ على حتمية اتصال كيان المحبّ بكيان الحبيبة رغم صدها وتجنّيبها انصرام حادث واتصال دائم ذاك قطبا التمزّق الذي سيظلّ يرهص كيان المحبّ حتى يتفتّت الوجدان وينحلّ ترابط الوجود الروحي بين الحبيين وينتفي بذلك أحد القطبين . ويبدو أنّ المرحلة، التي انكشف فيها موقف ولادة، أوتوهم الشاعر أنه انكشف له فيها قد أثّرت في نفسه أيما تأثير، وليس أدلّ على ذلك من تعدّد المقطوعات والقصائد والسياقات التي أفصح فيها ابن زيدون عن أحاسيسه إزاء ولادة وصنيعها معه ذلك أن " هيمنة العناصر

الموضوعية والتعبيرية بما تحمل من تكرار وتركيز نفسيين لا بد من أن يكون وراءها حركة باطنية معينة تنفتح فكرا وعاطفة وخيالا " (31). ويرد إفصاح الشاعر غالبا - ضمن هذا السياق - قائما على المقابلة بين الوصل والفصل أو بين الوفاء والتغير أو بين الحب والقلى .يقول ابن زيدون (الطويل) (32) :

جَفَانِي بِالْطَّافِ الْعِدَى وَأَزَالَهُ عَنْ الْوَصْلِ رَأْيِي فِي الْقَطِيعَةِ حَادِثُ
تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِي، وَمَازَلْتُ وَانْقَا بَعْدَكَ، لَكِنْ غَيَّرْتُكَ الْحَوَادِثُ
وَمَا كُنْتُ إِذْ مَلَكَتْكَ الْقَلْبَ عَالِمًا بِأَنِّي عَنْ حَتْفِي بِكَفِّي بَاحِثُ

ونتيجة لمساعي الحساد ووشاية الأعداء انصرفت العلاقة، بين ابن زيدون وولادة وحلت القطيعة محلّ الوصال والجفاء والحقد محلّ الودّ والمحبة . فما هي خصائص هذه المرحلة من تجربة ابن زيدون العاطفية مع ولادة، وكيف جسد النصّ بأساليبه وأبنيته معاني القطيعة وأبعادها ؟

3) القطيعة

لقد أفضى بنا النظر في القصائد والمقطوعات الغزلية التي يتوفّر عليها الديوان إلى تبين نمطين من القطيعة، أما القطيعة الأولى فتبدو مؤقتة، لأنّ الصلة العاطفية التي تشدّ ولادة إلى عاشقها لم تجمد بصفة كلية وإن تلبّست بالجفاء والتغير والسلو . وإذا كان ذلك لم يفض إلى انفصام عالم الحبيبة عن عالم محبّها فإنه هيّا الأسباب لوقوع القطيعة النهائية، واستحالة التجربة العاطفية إلى مأساة حقيقية كما سنرى في موضع لاحق من هذا البحث .

إنّ أبرز صفة تتسم بها حالة القطيعة المؤقتة هي التناقض الحاد بين ولادة وعاشقها، وقد جسد ابن زيدون في بعض قصائده الغزلية ذاك التناقض بواسطة

(31) غازي فؤاد براكس، جبران خليل جبران في دراسة تحليلية تركيبية لأدبه ورسمه وشخصيته . دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981 ص 29 .

(32) الديوان، ص 58.

استخدام الثنائيات الضدية بكثافة بيّنة، وفي هذا السياق يصبح التناقض محرك القصيدة وموضوعها في آن واحد . يقول ابن زيدون (الطويل) (33) :

أَجْفَى بِلَا جُرْمٍ وَأَقْصَى بِلَا ذَنْبٍ سَوَى أَنَّنِي مَحْضُ الْهَوَى صَادِقُ الْحُبِّ
أَغَادِيكَ بِالشَّكْوَى فَأُضْحِي عَلَى الْقَلَى وَأَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى فَأُظْفِرُ بِالْعُتْبِ
فَدَيْتُكَ مَا لِلْمَاءِ عَذْبًا عَلَى الصَّدَى وَإِنْ سُمْتُ خَسْفًا مَحَلَّكَ مِنْ قَلْبِي
وَلَوْلَاكَ مَا ضَاقَتْ حَشَايَ صَبَابَةً جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ سَكْبًا عَلَى سَكْبِ

وتبدو من خلال التركيب الذي صيغ فيه مطلع المقطوعة طبيعة ذاك التناقض

وموقف الشاعر منه في آن واحد . ويمكن أن نتبين ذلك على النحو التالي :

ولادة	≠	ابن زيدون
1- أَجْفَى	≠	1- بِلَا جُرْمٍ
2- أَقْصَى		2- بِلَا ذَنْبٍ
		3- مَحْضُ الْهَوَى
		4- صَادِقُ الْحُبِّ

فقد اقترنت ولادة بفعلين سلبيين من حيث الدلالة، وهما فعلاَن يحيلان على حدثين طارئين (الإجفاء، والإقصاء)، بينما اقترن الشاعر بأربع عبارات ذات دلالة إيجابية، ومن خلال المقارنة بين ركني المقابلة نتبين براءة الشاعر وإدانته لولادة . على أن صياغة البيت في قالب استفهام تعجبي يعمق أبعاد التناقض بين صنيع ولادة وما يكنه لها عاشقها من حب صادق . ويعزز البيت الثاني أيضا ذاك التناقض :

أَغَادِيكَ بِالشَّكْوَى أَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى
أُضْحِي عَلَى الْقَلَى فَأُظْفِرُ بِالْعُتْبِ
≠ ≠ ≠

وتفتقر القطيعة المؤقتة عند ابن زيدون بنسيان ولادة إياه، ورغبتها عنه يقول
(البسيط) (34) :

يَا نَاسِيَا لِي، عَلَى عِرْفَانِهِ تَلْفِي ذَكَرُكَ مِنِّي بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولُ
وَقَاطِعًا صِلَتِي مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبِ تَا اللَّهَ إِنَّكَ عَنْ رُوحِي لَمَسْوُولُ

ويبدو احتداد التأزم بين الشاعر وولادة على أتمه في مقطوعة نونية حيث يقف
الحبيب على طرفي نقيض، فإذا كان ابن زيدون مقترنا بالتمادي في طلب الوصل
والتماذي في معاناة الأسى والشوق، فإن ولادة اقترنت بالهجر والسلوان . هذا ما نقف
عليه في قوله (البسيط) (35) :

جَا زَيْتَنِي عَنْ تَمَادِي الْوَصْلِ هَجْرَانَا وَعَنْ تَمَادِي الْأَسَى وَالشَّوْقِ سُلُونَا
بِاللَّهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى خَطَاً أَمْ جِئْتَهُ عَامِداً ظُلُمًا وَعَذُونَا؟
مَا صَحَّ وَدِّي إِلَّا اعْتَلَّ وَدُّكَ لِي وَلَا أَطْعَمْتُكَ إِلَّا زِدْتَ عَصِيَانَا(36)

ويبدو من خلال البيت الثاني أن ابن زيدون في هذه المرحلة من تجربته العاطفية كان
يعيش حياة حيرة واضطراب نفسي، ولعل الاستفهام في هذا السياق يجسد على صعيد
الأسلوب تلك الحيرة . في هذه المرحلة نتبين بوضوح أن أمل ابن زيدون في رجوع
ولادة إلى سالف عهدها لم ينقطع، وأن التئام الشمل رغم السلو والانفصال لم يكن أمرا
مستحيلا . لقد كانت تتراءى لابن زيدون على توتره النفسي تبشير الأمل، لذلك لم
يقابل السلو بالسلو ولا الهجر بالهجر ولا التغير بالتغير لأن تلك المعاني تؤول

(34) الديوان، ص 65 .

(35) المصدر السابق، ص 67.

(36) الملاحظ أن هذه المقطوعة تخضع لنفس البحر ونفس الروي في قصيدة " أضحي التناهي " وكأننا بالشاعر يمهّد بها لإبداع نونيته الشهيرة .

بوجوده إلى التفكك والتمزق والمحنة . أما البقاء على العهد فهو ثبات وتشبث بمن تتوق إليه النفس يقول (البسيط) (37) :

مَا شِئْتُ فَاصْنَعُهُ، كُلُّ مِنْكَ مُحْتَمَلٌ
لَوْ كُنْتُ حَظِّي لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا
وَالذَّنْبُ مُغْتَفَرٌ وَالْغَدْرُ مَقْبُولُ
أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا لَمْ يَبْقَ مَأْمُولُ

بيد أن حفظ ابن زيدون للعهد كان من قبيل الحتمية لا من قبيل الاختيار، ذلك أن الشاعر كان عاجزاً عن التكرار لما في قلبه من عشق لولادة، وعن التخلص من قيود حبه لها . هذا ما نستشفه من قوله (الوافر) (38) :

بِثَقِي بِي يَا مُعَذِّبِي فَإِنِّي
وَأِنْ أَصْبَحْتُ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا
وَهَلْ قَلْبٌ كَقَلْبِكَ فِي ضُلُوعِي
تَمَنَّتْ أَنْ تَنَالَ رِضَاكَ نَفْسِي
وَلَمْ أَجْنِ الذُّنُوبَ فَتَحْقِدِيهَا
سَأَحْفَظُ فَيْكَ مَا ضَيَّعْتُ مِنِّْي
بِسُخْطِي، لَمْ يَكُنْ ذَا فَيْكَ ظَنِّي
فَأَسْأَلُو عَنْكَ حِينَ سَلَوْتُ عَنِّْي
فَكَانَ مَنِيَّةً ذَاكَ التَّمَنِّي
وَلَكِنْ عَادَةً مِنْكَ التَّجَنِّي

لذلك كان الوفاء الحقيقة المطلقة التي أصبح ابن زيدون لا يرى الوجود إلا من خلالها يقول ضمن هذا السياق (البسيط) (39) :

عَهْدِي كَعَهْدِكَ مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ
وَأِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ الْعَهْدُ أَلْوَانَا

وتقف في سياق هذه القطيعة المؤقتة على قصيدة حائية (40) تتحرك أغلب وحداتها الدلالية في دائرة الانغلاق على الذات المتأزمة، ويخضع نموها لنسق تنازلي قوامه الأسى العميق والحزن المتواصل (الوافر) :

(37) الديوان، ص 66.

(38) الديوان ، ص 60.

(39) المصدر السابق، ص 67.

(40) المصدر السابق، ص 50 (ط. 1951)

فَوَادِي مِنْ أَسَى بِكَ غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي، عَنْ هَوَى لَكَ، غَيْرُ صَاحٍ (41)

ولكن رغم الانغلاق الذي خضعت له القصيدة انتهت الحركة الأخيرة منها بانفتاح على الأمل، وهو انفتاح حاول الشاعر من خلاله أن يحقق لنفسه حداً أدنى من التوازن النفسي، وهذا التوازن لا يمكن أن يكون إلا من خلال اتصاله بحبيبته والخروج من دائرة ذاته المنغلقة . والحائية برمتها قائمة على جدلية الانغلاق والانفتاح إذ نظرنا إليها من هذه الزاوية، وهما حركتان عنيفتان ظلتا تتجاذبان ذات الشاعر، وهو ما تسبب في تمزقه بين أطراف متناقضة كالاتصال والانفصال والتو والانتزاع والرغبة والرغبة والسعادة والشقاء، مثلما يبدو ذلك في قوله (الوافر) :

فَلَوْ أَسْطِيعُ طَرْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ
عَلَى حَالِي وَصَالٍ وَاجْتِنَابٍ وَقِي يَوْمِي دُنُوٌّ وَانْتِرَاحٍ (42)

ومن ناحية أخرى نلاحظ جدلاً في القصيدة قائماً على أساس توزيع الزمن، وهو جدل بين الحاضر والماضي، ويمثل الماضي ذكريات الشاعر المشرقة مع حبيبته، في حين يمثل الحاضر لحظات التأزم والأسى نتيجة الانفصال عن المعشوقة . ويبدو أن الحاضر قد هيمن على القصيدة من الوجهة الزمنية رغم أن ابن زيدون حاول أن يجعل من ماضيه حاضراً وأن يخلق لنفسه زمناً خالصاً به، زمن سعادة وتوازن، ولم تكن وسيلته في ذلك إلا الذاكرة، بها استطاع أن يخترق سيرونة الزمن . ومن خصائص الذاكرة أنها تعمل دائماً عكس الزمن (43). ومن خصائصها أيضاً أنها تعتبر شكلاً من أشكال الوجود (44). ولقد استطاع ابن زيدون أن يحقق لنفسه ضرباً من التوازن في هذه الحائية، يتجلى ذلك في قوله :

(41) م.ن.

(42) المصدر السابق، ص 50 (ط. 1951)

(43) يذهب قيسدورف (Gusdorf) إلى أن الذاكرة تقوم بتجربة "ضد الوقت" انظر جان كلود فيو الذاكرة، ترجمة جورج يونس، 1973 ص 7 .

(44) ذهب إلى ذلك أصحاب المذهب الظاهراتي واعتبروا الذاكرة إحدى إمكانيات وجود الإنسان في العالم: انظر، المرجع السابق، ص 6.

وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا وَمِنْ ذِكْرِكَ رِيحَانِي وَرَاحِي (45)

غير أن خروجه عن نسق الزمن الراهن لم يطل لأن الإنسان لا يستطيع العيش كلياً من خلال الذاكرة، وفي زمن غير زمنه، معنى ذلك أن الذاكرة عاجزة عن تقديم حل كامل لأزمة الشاعر لذلك سرعان ما ارتد ابن زيدون في خاتمة هذه الحائية إلى اللحظة الراهنة زمنياً وإلى الانغلاق على الذات نفسانياً .

إن ابن زيدون - وإن كان واعياً بأن حبيبته أصبحت جزءاً من أعدائه إثر تغييرها وتكررها لعهوده - ظل ينظر إليها دائماً بمنظار الحب والشغف، يقول (الكامل) :

سَأَحِبُّ أَعْدَائِي لِأَنَّكَ مِنْهُمْ يَا مَنْ يَصِحُّ بِمَقْلَتَيْهِ وَيُسْقَمُ
أَصْبَحْتَ تُسَخِّطُنِي فَأَمْنُكَ الرِّضَى مَحْضًا، وَتَنْظِلُمَنِي فَلَا أَتَظَلَّمُ (46)

هكذا تبدو ولادة في هذه المرحلة معنة في الجفاء والصد، في حين يبدو ابن زيدون متعلقاً بها أشد التعلق، وكأنه يريد بذلك الحيلولة دون وقوع مأساته العاطفية، بيد أن ولادة أبت إلا أن تقرن حبه بالموت، وأمله باليأس، فافضى كل ذلك إلى القطيعة النهائية التي كانت الحركة الحاسمة بين الحبيين . فكيف تجسدت ملامح هذه المرحلة الأخيرة في شعر ابن زيدون الغزلي، وكيف جابه عاشق ولادة هذا الحدث الذي طالما وقف دون وقوعه ؟

- القطيعة النهائية :

تعتبر نونية ابن زيدون الشهيرة والبديعة أعمق نموذج شعري غزلي في الديوان ويرجع ذلك إلى كونه استطاع أن يستوعب بكيفية شاملة ما كان لحدث القطيعة النهائية بين الحبيين من أبعاد عاطفية ومأسوية ووجودية على تعددها وتضاربها أحياناً، ولعل ثرائها وعمقها هما سرّ جاذبيتها وإبداعها .

(45) الديوان، ص 50 (ط. 1951) .

(46) المصدر السابق، ص 62 .

ويبدو أن ابن زيدون قبل أن يبدع مطولته الغزلية التي تختزل تجربته العاطفية مع ولادة اختزالا بديعا، مرّ بمرحلة محاكمة للحبيبة والنفس في آن واحد. وقد جسدت هذه المحاكمة قصيدة لامية⁽⁴⁷⁾ أقامها الشاعر على طرفي الاحتجاج للنفس والاحتجاج على ولادة . وأفضى به الأمر في النهاية إلى إدانة حبيبته وإخراجها في صورة الناكثة للعهد، المكذرة لصفو العلاقة، المتكررة للجميل، المساعدة للأعداء، الزاهدة في المودة، الطاعنة في وفائه والمشوهة لكرامته .

إن صورة ولادة في هذه اللامية تبدو مشوهة وحتى الحسن الذي كانت تتمتع به استغلته كسلاح للاعتداء على ذات حبيبها . إن هذه القصيدة تمثل دفاعا عن النفس وإدانة لولادة وتبريرا لموقف اتخذته ابن زيدون على مضض، ووضع به حدا لمحبة اختلط بعناصر وجوده، وأخذ بمجامع قلبه، وطبقت شهرته آفاق المغرب والمشرق معا حتى أضحى اسم ابن زيدون مقترنا دوما باسم ولادة .

إن أول حركة تحدّد القطيعة النهائية هي الفراق الذي حلّ بصفة مطلقة محلّ الوصال الصّرف والوصال المشوب بالجفاء والصدّ . وفي هذا السياق يركز ابن زيدون على إبراز مظاهر التحول من مرحلة الوصل إلى مرحلة الفصل، وليس ذلك إلا دليل على عمق الآثار التي خلفها حدث الانصرام في واقعه النفسي والحياتي . ويبدو أن إحساس الشاعر بتحول وجهة حياته نتيجة انفصام العلاقة التي تشده بولادة هو المحرك الرئيس الذي خلخل وجدانه ودفعه إلى الإبداع والإفضاء بما اعتمل في أعماق ذاته من تأزّم وتوتر . لهذا السبب كان النّاسخ " أضحى " الدّال على التحول والضيورة والاستحالة أول كلمة استهل بها الشاعر مطولته الغنائية (البسيط) :

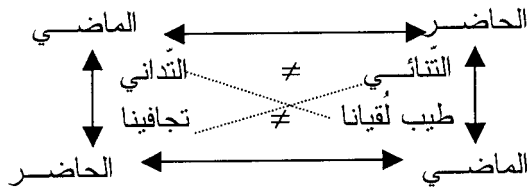
أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِيَا
وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيَا (48)

(47) الديوان، ص 34-35-36 (ط. 1951) .

(48) المصدر السابق، ص 9 (ط. 1951) .

فمن البداية يجسد ابن زيدون أهمّ المعطيات التي سيكون لها أثر كبير في حياته من جهة، وفي تشكيل بناء القصيدة من جهة أخرى .

إنّ التحوّل يقيم حدًا فاصلاً بين التّداني والتّناهي، بين اللقاء والتّجافي، على أنّ انطلاق الشّاعر في صدر المطّلع من التّناهي يجسّد تأثير اللّحظة الرّاهنة، لحظة التّأزم في نفسه. إلّا أنّ حاضره كان في علاقة جدليّة مع ماضيه، لذلك استحال الفصل بينهما، وآية ذلك انبناء المطّلع على المقابلة بين الماضي السعيد والحاضر الأليم، ويمكن أن نتبيّن التّقابل في الرّسم التّالي :



وبما أنّ اللّحظة الرّاهنة هي التي اقترنت بالحدث الحاسم أفصح الشّاعر عن ذلك بواسطة فعلي " أضحى " و " ناب " الدّالّين على التّحوّل والصّيرورة بينما اقترن الماضي المندثر بمصادر لا تتعلّق بزمن ما (تدانينا / لقيانا/تجافينا) فكأنّ الماضي انفصم عن الزّمن المعيش مثلما انصرم وجود ولادة عن وجود ابن زيدون . وكانت لحظة الانصرام عسيرة وشبيهة بالموت لأنّها تشكّل في نظر الشّاعر الحدّ الفاصل بين الوجود واللاوجود أو بين الحياة والموت، لذلك اقترن البين في مخيلة الشّاعر بالحين والنّعي (البسيط) (49) :

أَلَا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبْحًا حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِيًا

ولعلّ تردّد حرف الحاء الذي هو من حروف الحلق خمس مرّات في سياق البيت يعزّز مدلول الحرقة والالتئاع . وقد خلّف حدث الانصرام في نفس ابن زيدون

حزنا " لا يبلى " لأنه ارتبط عند الشاعر بالمطلق لعظمه فخرج بذلك عن " الدهر " كما انفصل ماضي الشاعر عن حاضره في الواقع المعيش يقول في ذلك (البسيط) (50)

مَنْ مَبْلَغِ الْمُلْبَسِنَا بَانْتِزَاحِهِمْ حُزْنًا، مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيَبْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا

ويتعمق التقابل بين الماضي والحاضر المحددين إلى أن يستحيل إلى تقابل بين الديمومة والسيرورة (مازال/ قد عاد)، وتبعا لتوزع الزمن - الذي كان موحدًا - على طرفي الماضي والحاضر وتوزع واقع الشاعر النفسي على طرفي الضحك والبكاء (يضحكننا/ يبكيننا)، ولعل هذا التوزع هو الذي جعل ابن زيدون يعيش حالة تمزق مرير يمتزج فيه الماضي بالحاضر . وعن ذلك تتولد جملة من الأحاسيس المتبانية كاليأس والشوق والأسف والحزن والأسى يقول ابن زيدون في هذا السياق (البسيط) (51) :

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّينَا عَوَارِضُهُ وَقَدْ يَسِّنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا
بَنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَتْ مَاقِينَا
نَكَادُ حِينَ تَسَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا

وعندما يبلغ التقابل بين الماضي الممعن في الإيجاب والحاضر الممعن في السلب أوجه يقرن الشاعر الماضي بالبياض المحيل على الإشراق والحياة، والحاضر بالسواد المحيل على الموت والحداد يقول (البسيط) (52) :

(50) المصدر نفسه، ص 10.

(51) الذبوان، ص 10.

(52) الذبوان، ص 10.

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ سُودًا، وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لَيَالِينَا (53)

على أن توتر الشاعر النفسي في المقاطع الأولى من النونية نتيجة الاصطدام العنيف بالحدث يفضي بعد ذلك إلى ضرب من السكينة تمكن الشاعر من تصوير ملابسات الفراق ودوافعه الحقيقية . هذا ما نستشفه في قوله (البسيط) :

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شُرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِنَا (54)

هكذا يقتصر الرواء بالظلم عند ابن زيدون ويفضي ذاك الاقتران الغريب إلى إحداث " المفاجأة " لدى المتقبل وعن ذلك تنشأ النشوة الفنية . على أن سمة الغرابة في علاقة الرواء بالظلم من الوجهة الأسلوبية تعكس من الوجهة الدلالية غرابة الحب الذي يكنه ابن زيدون لولادة، إنه حبّ يخترق ما تواضع عليه الناس وألفه المجتمع مثلما اخترق الرواء الذي يقود إلى الظلم سنن التعبير من الوجهة الأسلوبية.

(53) أشار عبد السلام المسدي ضمن هذا السياق إلى الدلالات الحافة باللونين الأبيض والأسود قائلا: " فلو عدنا إلى الثنائي اللوني - الأبيض والأسود - وحققنا في بعض دلالاتهما المجتمعية لرأينا مثلا دلالة الأسود على الحزن فيما يتخذه الناس من ثياب في المآتم ... واتخاذ الأسود أمانة على الحزن ليس إلا عرفا من الأعراف ولكنه عرف يعقلن لارتباط السواد بالظلمة واقتران الظلمة بالخوف والفرع وكل ما يثير رهبة النفوس ... " ، اللسانيات وأسسه المعرفية الدار التونسية للنشر، تونس؛ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، أوت، 1986 ص 57 . فيما يتعلق بدلالات الألوان انظر :

- Abdelwaheb Bouhdiba , Culture et société, publication de l'université de tunis, 1972 p 73 (les Arabes et les couleurs)

انظر كذلك المنجي الشملّي ، الفكر والأدب في ضوء التنظير والنقد، دار المغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان ، 1985، ص 156.

(54) الديوان ، ص 10.

يتطرق ابن زيدون في هذا السياق إلى تعليل نأيه عن ولادة مادام يتشبث بما يربطه بها من عهد فينفي أن يكون السلوان ولا القلى علة ذلك النأي، يقول (البيسط) (55) :

لَمْ نَجِفْ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبُهُ سَالِينَ عَنْهُ، وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
فما الذي دفع ابن زيدون إلى النأي إذن إذا لم يكن السلوان والقلى وراء ذلك ؟ لقد كان نأي الشاعر عن ولادة وقرطبة معا أمرا حتمته العوادي وفرضته الضعائن (البيسط) (56) :

وَلَا اخْتِيَارًا تَجَبَّنَاهُ عَنْ كَتَبِ لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كُرِهِ عَوَادِينَا
وكان الفراق نتيجة مباشرة لغيظ الأعداء (البيسط) :

غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا بَأْنَ نَغْصَ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَأَنْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا (57)

على أن وزر القطيعة النهائية لا يقع كله على عاتق العدى إذ لولادة نصيب فيما أضحي حتمية لا محيد عنها . هذا ما نقف عليه في البيتين التاليين اللذين لا يخلوان من اللوم والعتاب. يقول في ذلك (البيسط) (58) :

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
مَا حَقَّقْنَا أَنْ تَقْرُوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا، وَلَا أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا (59)

على هذا النحو يبدو لنا تعليل ابن زيدون لحدث القطيعة من خلال نونيته، فإذا كان صنيع الأعداء وولادة معا هو الذي أدى إلى المحنة فكيف تقبل الشاعر ذلك الحدث

(55) الديوان، ص 12.

(56) المصدر نفسه، ص 9.

(57) المصدر نفسه، ص 9.

(58) المصدر نفسه، ص 10.

(59) الكاشح : المبغض .

وما الذي انجرّ عن التثائي ؟ قد لا نباغت القارئ في هذا الموضع من البحث إذا قلنا إن حدث التثائي الذي عاشه الشاعر أفضى به إلى مزيد التعلّق بالوصال والإصرار على الوفاء . هذا ما نفق عليه في قوله (البسيط) (60) :

لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا
مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفْتُ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

هكذا تحلّ الصلّات المعنوية والروحية التي قوامها الوفاء والهوى محلّ الصلّات المادية التي أصبح الشاعر على يقين تام أنها انصرفت كلياً، لذلك سعى ابن زيدون إلى تخطّي مظاهر التمزّق النفسي بإيجاد الحلقة التي تصل حاضره بماضيّه، وكيانه المتلاشي في الزّمن المندثر بكيانه المتصدّع في الزّمن الراهن . في هذا السياق كان البرق مطيّة الاتصال المعنويّ بالحبّية وسبيلاً لبثّ الحياة في ذاك الحبّ الذي غدا كالأطلال . ولعلّ ورود معنى السقي في الأبيات التالية يعمّق مدلول الموت بكيفيّة بيّنة، يقول ابن زيدون (البسيط) (61) :

يَاسَارِي الْبَرْقِ غَادِ الْفَصْرِ وَاسْقِ بِهِ
مَنْ كَانَ صَرْفَ الْهَوَى وَالْوُدَّ يَسْقِينَا
وَاسْأَلْ هُنَاكَ هَلْ عَنِّي (62) تَذَكُّرُنَا
إِلْفًا، تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا ؟

لقد كان ابن زيدون يعاني من التذكّر، ذلك أنّ التذكّر إنما هو " إقامة اتّصال بين الأنّاء والآنّاء من خلال الزّمان " على حدّ تعبير قيسدروف (63)، غير أنّ ذلك التّدخل بين الكيانين لا يتولّد عنه في نفس الشاعر إلّا التّأزم (يُعْنِينَا) . وإذا كان الماضي بدا لابن زيدون مقترنا بالموت فإن حاضره بدا له أيضاً فاقداً للإحساس بالحياة (البسيط) :

(60) الديوان، ص 10 .

(61) الديوان ، ص 11 .

(62) عَنِّي : شَغَلَ .

(63) نقلا عن ج. كلود فيو Jean claude filloux الذّاكرة، ترجمة جورج يونس، بيروت

1973، ص 19.

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَن لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا (64)

هكذا يقف ابن زيدون بين فكّي " الموت " : ماضيه المندثر وحاضره المتأزم، ولعلّ سياق هذا البيت والأبيات السابقة يجلّي بكيفية بيّنة سعي الشاعر إلى إقامة توازن بين ماضيه وحاضره. وبيان ذلك أن صورة البرق استخدمها الشاعر لغرض بعث الحياة في الماضي الميت، أما صورة الصبا فقد وظّفها لبتّ الحياة في كيانه المنهار وحاضره المتأزم .

على أن الشاعر ظلّ عاجزا عن وصل ماضيه وحاضره بكيفية إيجابية وهو ما دفعه إلى التفكير في المستقبل، فقد يحمل له الزمن الآتي انفراجا أو أملا في الانفراج. وكان التمني مطيّة الشاعر إلى المستقبل مثلما كان " البرق " و " الصبا " مطيّة إلى الماضي والحاضر . يقول ضمن هذا السياق (البسيط) (65) :

فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِي مُسَاعَفَةً مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا

بيد أن ابن زيدون كان ينظر إلى ماضيه من خلال حاضره وإلى حاضره من خلال ماضيه، وكانت الأشياء قد تعتمت في ذاكرته التي تعتبر إحدى أمكانيات وجوده في العالم (67) . لقد عجز عن وصل ماضيه وأخفق في الخلاص من أزمة الحاضر، وبئس من تقدير المستقبل، عندئذ انفتح زمن الآخرة في وجه الشاعر وتجسّد المنظور الإسلامي الذي يفصل بين عالمي الدنيا والآخرة وزمنيتهما . وإذا كان اللقاء في المستقبل مستحيلا أو يكاد، فإن اللقاء في " موقف الحشر " يقين لا ريب فيه (البسيط) (68) :

(64) الديوان، ص 10 .

(65) الديوان، ص 10 .

(66) يقضي مساعفة : أي يقدر والغيب : الزيارة بعد أيام.

(67) ج . كلود فيو، الذاكرة ، ص 7 .

(68) الديوان، ص 12 .

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدَلْنَا بِسِدْرَتِهَا
كَأَنَّنا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
وَكَوْثَرَ الْعَذْبَ زُقُومًا وَغَسَلِينَا (69)
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْقَانٍ وَأَشِينَا
فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ نَلْفَاكُم وَتَلْقُونَا
وفي ذلك الزَّمن السَّرمدي يمتزج كيان الحبيبة بكيان محبها في انسجام روحي
عميق (البسيط) (70) :

سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
حَتَّى يَكَاذَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
على أن فرار الشاعر من الزَّمن الواقعي إلى الزَّمن السَّرمدي الميتافيزيقي، ومن
الرَّاهن إلى المطلق يعتبر ضرباً من التَّوق إلى السلوان وصورة لارتباك الذات
وانكسارها وعجزها عن التَّكَيِّف مع معطيات الواقع الرَّاهن . لذلك سرعان ما يرتدّ
ابن زيدون في نونيته إلى حاضره المتأزّم الذي يعتبر الحقيقة الثانية بعد حقيقة حبّه
لولادة . ويستمدّ حاضر الشاعر تأزّمه من تلبسه بأبعاد الماضي وعدم انفصاله عنه
وهو ما جعل شخصية ابن زيدون تعيش حالة تمزق قصوى أخفقت " الشَّمول "
والألحان والأوتار في الفصل بين طرفيها . يقول في هذا السياق (البسيط) (71) :

نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُنْتُ مُشْعَشَعَةً
فِينَا الشَّمُولُ، وَغَنَّا مُغْنِيًا (72)
وتوازي حركة الاتصال بالماضي التي عنها تولّد تمزق الشاعر النَّفْسِي حركة
انفصال ولادة عن كيان الشاعر، وعن ذلك تولّد الإحساس باليأس من المستقبل، وفي
هذا السياق يتنزّل تشبّث ابن زيدون بالدَّوام على العهد يقول (البسيط) (73) :

(69) الزُّقُوم شجرة مرة كريهة الرائحة ثمرها طعام أهل النَّار . والغسلين ما يسيل من جلود أهل النَّار
كالقيح وغيره . وفي القرآن الكريم " وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ " (المعجم الوجيز) .
(70) الديوان، ص12.

(71) المصدر نفسه، ص13.

(72) الشَّمُول : الخمرة التي تشمل القوم بريحتها، الثَّعَالبي، فقه اللّغة، ص 400 .

(73) الذّاكرة، ص 13.

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَاذُمْنَا مُحَافِظَةً، فَالْخُرُّ مِنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَنْثِينَا

هكذا يجسد تجانس الأصوات بين " دومي " و " دُمْنَا " و " دينا " توق الشاعر إلى الانسجام مع حبيبته نحو تحقيق توازنه النفسي . في حين يعكس البيت الثاني عجز المحب عن وصل حبيبته وعجزه عن الانفصال عنها في آن واحد . وعن ذاك العجز بوجهيه انبثقت مأساة ابن زيدون في تجربته العاطفية مع " ولادة " على أن الشاعر أثر المأساة في ظلّ الوفاء والتعلق بالعهد على المأساة في ظلّ التكرّر للعهد الماضية وقطع الصلة بولادة .

وإذا كان ابن زيدون عاجزا عن إيجاد حاضر سعيد في الواقع المعيش فإنه قادر على أن يتخلص إلى حدّ ما من الحاضر الأليم ليعيش في ماضيه المندثر، وما من سبيل إلى ذلك إلاّ الذاكرة " إنها القدرة التي يتمتع بها الوعي على الانسلاخ عن الحاضر ليعود إلى الماضي ويتحوّل إلى وعي لهذا الماضي، وذلك في حركة تصعيدية تسمو بالزمن " (74) .

يقول ابن زيدون في خاتمة نونيته (البسيط) (75) :

أُبْكِي وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً فَالطَّيْفُ يَقْنَعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ بِيضَ الْأَيْدِي الَّتِي مَازَلْتَ تُؤَلِّينَا
عَلَيْكَ مِنْ سَلَامِ اللَّهِ مَا بَقِيَتْ صَبَابَةٌ بِكَ تُخْفِيهَا فَتَخْفِينَا (76)

لقد أثر ابن زيدون أن يوجد لنفسه بعد أن عجز عن الانسلاخ الكامل عن الحاضر والعيش الكلي في الماضي - عالما مخصوصا، عالما من صنع الذاكرة سلاح الإنسان الأبدي ضدّ الزمن والتلاشي، ومن صنع الخيال والوهم اللذين يجسدان البعد الثاني

(74) الديوان، ص 10 .

(75) الديوان، ص 13 .

(76) تخفينا أي تفضحنا وبين تخفيها وتخفينا جناس تام .

لوجود الإنسان . ومن خلال ذلك الوجود تتفتح آفاق الوصال المجرد من قيود الغرائز والمادة، مفعمة بسلام إلهي أبدي مادامت الصبابة تغذي أسباب الوصال وتوجدها .
 هكذا تبدو تجربة ابن زيدون العاطفية مع ولادة من خلال النص الغزلي، منطلقها الحب والتعلق ومنتهاهما اليأس والوفاء، وبين المرحلتين نفس تعشق الحبيب فينبلس كيانه بكيانه حتى يشكلا وجودا واحدا، وعندما بلغ الامتزاج الروحي درجته القصوى انفصم الوجودان . ولما كان الحب بين ابن زيدون وولادة غير متوازن انصبّت المأساة بأبعادها المختلفة على منطلق العشق ومصدره فكانت بذلك محنة الشاعر . ولقد جسدت النونية تلك المحنة برمتها فكانت أثر التتويج الذي استوعب كل مراحل التجربة وكأنما أفرغ فيها ابن زيدون طاقات حبه وشاعريته ومحنته النفسية والوجدانية . فإذا صحّ ذلك أفلا تكون جميع تلك الاعتبارات العناصر الكامنة وراء عملية الإبداع الشعري التي جعلت من هذه القصيدة على حدّ عبارة صاحب المغرب " القصيدة التي ضربت في الإبداع بسهم وطلعت في كل خاطر ووهم، وتزعّت منزعا قصر عنه حبيب وابن الجهم " (77) .

الخاتمة :

على هذا النحو يقوم النص الشعري شاهدا على تجربة مُبدعه، ويكون الأسلوب واقعا لفظيا وفنيا ممتزجا كل الامتزاج بشخصية المُبدع، وخصائص معاناته النفسية، وهو ما يعطي لتجربة الشاعر " إيقاعها " الخاص (78)، ويضفي عليها " صبغا " (79) نفسيا معينا، لأن مفهوم التجربة "

(77) المغرب ، ص 66 وابن الجهم من شعراء الدولة العباسية المشهورين ، توفي سنة 863/249
 انظر ترجمته في طبقات الشعراء لابن المعتز (ت 908/296) ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف، ط 40، القاهرة (د. ت) .

(78) شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، مطبعة جامعة دمشق، 1959 ص 54 .

(79) المرجع السابق، ص 54 .

مرتبط في الغالب بالألم الذي يبدو ضرورياً لتحوير موقفنا من الحياة " (80)
ولتعديل بعض " الحقائق " التي لا يمكن أن نصل إليها إلا عن طريق "
المُعانة " . (81)

غير أن مهمة الناقد في هذا السياق لا تقف عند حدود اكتشاف طبيعة
العلاقة بين المبدع والمبدع، وإنما تتخطاها إلى التعليل والتأويل، ذلك أن
الأسلوب على حدّ تعبير محمد الهادي الطرابلسي " صِرَاعٌ مُسْتَمِيتٌ ضِدَّ
اعتباطيّة الدالّ " . (82)

(80) Ferdinand Alquié, l'expérience, P.U.F paris, 1957 p. 3.

(81) المرجع السابق ص 3.

(82) محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، منشورات الجامعة التونسية،
تونس، 1981، ص 513 .